كُفْرُ الذُّبابة ...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال كَلِيلة(1) وهو يَبسط دِمْنةَ ويُحذِّره، ويقضي حقَّ الله فيه؛ وكان دمنةُ قد داخلَه الغرورُ وزهاه النصر، وظهر منه الجفاءُ والغِلظة، ولقيَ الثعالبُ من زَيغه وإلحاده عنَتاً شديداً:

... واعلم يا دمنة أن ما زعمتَه من رأيك تاماً لا يعتريه النقص، هو بعينه الناقصُ الذي لم يتمّ، والغرورُ الذي تُثبت به أن رأيك صحيحٌ دون الآراء، لعله هو الذي يُثبت أن غيرَ رأيك في الآراء هو الصحيح

ولو كان الأمر على ما يتخيَّلُ كلُّ ذي خيال لصدق كلُّ إنسان فيما يزعم، ولو صدق كلُّ إنسان لكذَب كلُّ إنسان؛ وإنما يدفعُ اللهُ الناسَ بعضَهم ببعض، ليجيءَ حقُّ الجميع من الجميع، ويبقى الصغيرُ من الخطأ صغيراً فلا يكبَر، ويثبُتَ الكبيرُ من الصواب على موضعه فلا يُنتقَص، ويصحّ الصحيحُ مادامت الشهادةُ له، ويفسُدَ الفاسد مادامت الشهادةُ عليه؛ وما مثَلُ هذا إلا مثَلُ الأرنب والعلماء

قال دمنةُ وكيف كان ذلك؟

قال: زعموا أن أرنباً سمعت العلماءَ يتكلمون في مصير هذه الدنيا، ومتى يتأذّنُ اللهُ بانقراضها، وكيف تكون القارعة؛ فقالوا: إن في النجوم نجوماً مذنَّبةً لو التفَّ ذنبُ أحدها على جِرْم أرضنا هذه لطارتْ هَباءً كأنها نفخةُ النافخ، بل أضعفُ منها كأنها زفرةُ صدرٍ مريض. فقالت الأرنب: ما أجهلكم أيها العلماء! قد والله خرِفتم وتكذَّبتم، ولا تزال الأرضُ بخير مع ذوات الأذناب؛ والدليلُ على جهلكم هذا. — وأرتْهم ذنبَها ...!

قال كليلة: وكم من مغرورٍ يُنزل نفسَه من الأنبياء منزلةَ هذه الأرنب من أولئك العلماء؛ فيقول: «كذَبوا وصدَقتُ أنا، وأخطئوا جميعاً وأصبتُ، والتبس عليهم وانكشف لي، وهم زعموا وأنا المستيقن.» ثم لا دليلَ له إلا مثلُ دليل الأرنب الخرقاء من هنةٍ تتحرّك في ذنبها. وكان يقال: إنه لا يجاهرُ بالكفر في قوم إلا رجلٌ هان عليهم فلم يعبأوا به؛ فهو الأذلُّ المستضعف؛ أو رجلٌ هانوا عليه فلم يعبأ بهم، فهو الأعزُّ الطاغية. ذاك لا يخشونه فيدعونه لنفسه وعليه شهادةُ حمقه، وهذا يخشونه فيتركون معارضته وعليه شهادةُ ظلمه؛ وما شرٌّ من هذا إلا هذا. وقالت العلماء: إن كنتَ حاكماً تشنق من يخالفك في الرأي، فليس في رأسك إلا عقلٌ اسمه الحبل؛ وإن كنتَ تقتل مَن ينكر عليك الخطأ، فليس لك إلا عقلٌ اسمه الحديد؛ وإن كنت تحبس من يعارضك بالنظر، ففيك عقلٌ اسمه الجدار. أما إن كنتَ تناظر وتجادل، وتُقنع وتقتنع، وتدعو الناس على بصيرة، ولا تأخذُهم بالعمى — ففيك العقلُ الذي اسمه العقل

* * *

قال كليلة: وأنا يا دمنة، فلو كنت قائداً مطاعاً، وأميراً متبعاً، لا يُعصى لي أمر، ولا يُرَدّ عليّ رأي، ولا ينكر مني ما ينكر من المخلوق إذا أخطأ، ولا يقال لي دائماً إلا إحدى الكلمتين: أصبتَ أصبت؛ ولا يلقاني أحدٌ من قومي بالكلمة الأخرى، رهبةً من سخطي رهبةَ الجبناء، أو رغبةً في رضاي رغبةَ المنافقين، وزعموا أنهم على ذلك قد خلص لي باطنهم جميعاً، وصحت نياتُهم كلها — فلو كنتُ وكانوا على هذا، لأحالني نقصهم إلى نقص العقل بعد كماله، وردّتني فسولتُهم إلى فسولة الرأي بعد جودته، فأخلقْ بي أن أعتبر وضعهم إياي في موضع الآلهة هو إنزالهم إياي في منزلة الشياطين، وإلا كنتُ حقيقاً أن يصيبني ما أصاب العنز التي زعموا لها أنها أنثى الفيل ...

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

قال: زعموا أنه كان في إحدى خرائب الهند جماعةٌ من العَظَاء، وكان فيها عَضْرَفوطٌ كبير(1) فملَّكَتْه الجماعةُ وذهبت تأتمرُ من أمره وتنتهي. فمرّ بهذه الخربة فيلٌ جسيم

---

(1) كليلة ودمنة هنا أسلوب من أساليب الأستاذ الرافعي يعمد إليه حين يريد تقدير المعاني بالتمثيل والمحاورة (الرسالة)

(1) العظاء: جمع عظاءة وعظاية، وهي هذه الدويبة التي يقال لها (السحلية)، والعضرفوط ضرب من العظاء يكون أكبر منها

من الفيلة ، لم يُحِس بالعظاء ، ولم يُميز فرقاً بين هذه الأمة وبين الحصى منثوراً يلتمع في الأرض هنا وهنا ؛ فنظر المضرفوطُ كيف يصنعُ به ، وكان قائداً عظيما ، ثم تدبّر أمرَ الفيل ، فرآه لا يتحرّك إلا بأقدامه ينقلها واحدةً واحدة ؛ فقدَّر عند نفسه أنه لو أزال قدم الفيل عن الأرض زال الفيل نفسُه ؛ فجاء فاعترض الطريق ، ودبَّ دبيبَه إلى قَدَم الفيل ؛ فلما رفع الفيلُ قدَمه احتَبل هذه النقلة منه ... واندسَّ تحتها ، فاندسَّ مقبوراً في التراب ! ثم إن العَظاء افتقَدت أميرَها . فلما مضى الفيلُ لسبيله ، ورأتْ ما نزل بها تَفرّقتْ إلى أجحارها واستكنَّت فيها ترتقبُ وتتربّص ؛ فدخلتْ إلى الخربَة عنزٌ جعلت تتقمم منها وترتعُ فيها ، ورأتها العظاءُ فاجتمعن يأتمرن ..

فقال منها قائل : هذه أنثى الفيل . فسألتْ عظَايةٌ منهن : وأين النابان العظيمان ؟

قالت الأولى : إن الاناثَ دون الذكورة في خَلقها ، والأنثى هي الذَّكر مقلوباً أو مختصراً أو مشوّهاً ، ولذلكَ هن يقلبن الحياة أو يختصرنها أو يشوّهنها . أفلا ترَين النابين العظيمين البارزين في ذلك الفيل الجسيم ، كيف نبتا صغيرين منقلبين فوق رأس أنثاه .... ؟

فقالت واحدة : إن جاز قولك في الرأي فأين الخُرطوم ؟

قالت الأخرى : هو هذه الزَّنَمةُ المتدلية من حَلقها ، وهو خرطومٌ على قدر أنوثة الأنثى .... !

قالوا ؛ ثم اجتمع رأيهن على أن يَملّكن أنثى الفيل هذه ؛ وأن يهَبن لها الخربَة وأمّتها . وسمعت الماعزة كلامهن فقالت : لا جَرمَ أن تكون العنزُ فيلةً في أمةٍ من العَظاء ، فقد قالت العلماء : إنه لا كبيرَ إلا بصغير ، ولا قويَّ إلا بضعيف ، ولا طاغيةَ إلا بذليل ؛ وإن العظَمة إن هي إلا شهادة الحقارة على نفسها ، وإنه رُبّ عظيمٍ طاغيةٍ متجبر ما قام في الناس إلا كما تقوم الحيلة ، ولا عاش إلا كما يعيش الكَذِب ، ولا حَكَم إلا كما يحكم الخِداع . وهذه الدنيا للمحظوظ كأنها دنيا له وحده ، فتى جاءت إليه فقد جاءت ، وإذا أدبرت عنه من ناحية رجعت من ناحية أخرى ، ليُثبتَ الحظُّ أنه الحظ

وتقدّم العَظاء إلى العنز ، فقُلن لها : أيتها الفيلةُ العظيمة ، إن قَرينكِ العظيم قد مسَّ أميرَنا المضرفوط بقدمه فنفيه تحت سبع أرضين ، وإننا قد اخترناكِ مليكةً علينا ، ووهبنا لك الخربَةَ وما فيها

قالت العنز : فاني أتّهبُ منكن هذه الهبَة ، ونِعمّا صَنعتنّ ؛ غير أن بينكنّ وبيني ما بين العظاية والفيل ، ومابين الحصاة والجبل ؛ فاذا أنا قلتُ ، فأنا قلت ؛ وإذا أنا أمرتُ ، فأنا أمرْت ؛ وإذا أنا فعلتُ ، فأنا فعلت . هنا في هذه الأمة كلّها (أنا) واحدةٌ ليس معها غيرها ؛ لأن ههنا في هذا الرأس دماغ فيلة ، وفي هذا الجسم قوةَ فيلة ، وفي الخربَة كلها فيلةٌ واحدة ؛ فلا أعرِفنّ منكن على الصواب والخطأ إلا الطاعة ، طاعة الأعمى للبصير . ألاَ وإن أوّلَ الحقائق أنني فيلةٌ وأنكن عَظاء ؛ ومتى بدأ اليقين من هنا سقط الخلافُ من بيننا وبَطل الاعتراض منكن ، وقوّتي حقٌ لأنها قوّة ، وباطلي كذلك حق لأنه من قوّتي ؛ وقد قال حكماءُ الفيلة : إن القويّ بين الضعفاء مشيئةٌ مطلقة ، فهو مصلحٌ حتى بالافساد ، حكيمٌ حتى بالحماقة ، امامٌ حتى بالخرافة ، عالمٌ حتى بالجهالة ، نبيٌّ حتى بالشعوذة ...... !

قالوا ؛ وتُنكر عليها عظَايةٌ صالحةٌ عاقلة كانت ذاتَ رأيٍ ودينٍ في قومها ، وكنّ يُسمّينها : (الصيامة) ، لبياضها وصلاحها وطهارتها ، فقالت : ولا كلُّ هذا أيتها الفيلة ؛ لقد تخرّصْتِ غيرَ الحق فانك تحكيننا من أجلنا لا من أجلك ، وما قولك إلا كلماتٌ لا يحققها إلا أعمالُنا نحن ؛ فَمَلْكِ الطاعةُ فيما يُصلحنا لا فيما يُفسدُنا ، ورأيُك شيءٌ ينبغي أن تكون معه آراؤنا ، لتتبيّنَ الأسباب أسبابُ الموافقة والمخالفة ، فنأخذَ عن بيّنة ونتركَ عن بيّنة ؛ وقد كان يُقال في قديم الحكمة : إنه يجب على مَن يقدّم رأياً للأمّة الحازمة كي تأخذ به ، أو يضعُ لها شرعاً ليحملَها عليه ، أو يَسنُّ لها سنّة لتتبعها — يجب على هذا المتقدّم لتحويل الأمّة وتحريرها أن يتقدّم لأهل الشورى وفي رأسه الرأي ، وفي عنقه حبْل ؛ ثم يتكلّم برأيه ويبسطه ويدفع عنه ، ويجادله ويجادلونه ؛ فان كان الرأيُ حقاً أخذوا الرأي ، وإن كان باطلاً أخذوا الحبل فشنقوا فيه هذا المتهوّر

وفى ديننا أن الطاعة فى المعصية معصية أخرى ؛ ولقد كان لنا عنضرفوط بحاثة فى الأديان دراسة لكتبها ؛ فكان مما علّمنا أن المخلوق مبنيّ على النقص إذ هو ماضٍ إلى الفناء ، فيجب ألا يتم منه شيء إلا بمقدار ، وألا تكون القوة فيه إلا بمقدار ؛ ولهذا كان العقل التامّ فى الأرض هو مجموع العقول كلها ، وكان أتمّ الآراء وأصحّها ما أثبتت الآراءُ نفسُها أنها أصحّها وأتمّها . فلا الدينَ اتبعتِ أيتها الفيلة ولا اتبعتِ فينا العقل

فلما سمعت العنزُ ذلك تنفّشت وغضبت ، وقالت : إياكم وهذه الترّهات من ألسنتكم ، وهذه الأباطيل فى عقولكم ؛ لا أُتَّمّنَنّ منكم كلمةَ الدين ولا كلمةَ الأنبياء ولا العضافيط ... فذلك وحيٌ غير وَحْيي أنا ؛ وإذا كان غير وحيي أنا فأنا لستُ فيه ، وإذ لم أكن أنا فيه فهو لا يَصلُح للحكم الذى شرطُه أن الدولة ليس فيها إلا أنا واحدة . وذلك إن لم يجعلكم غَرَباءَ عن جعلي غريبةً عنكم ، ما بُدٌّ من إحدى القريتين ، فهو أولُ القطيعة ، والقطيعةُ أولُ الفساد . وما دام فى الدين أمرٌ غير أمرى ، ونَعْيٌ غيرُ نَعْيي ، وتحليلٌ وتحريم لا يتغيّران على مشيئتى — فأنا مجنونة إن رضيتُ لكم هذا . . . !

فضحكت (الهامة) وقالت للماعزة : بل قولى : أنا مجنونة بـ . . . أنا . أفلا يجوز وأنتِ خَلْقٌ من الخلق أن يعتريَ عقلَكِ شيءٌ مما يعترى العقول ؟ ولسنا ننكر أنك قوية الرأى فى ناحية القوة ، حسنةُ التدبير فى ناحية الشجاعة ، متجاوزةُ المقدار فى ناحية الحزم والحرص على مصالح الدولة ؛ ولكن ألم يقل الحكماء : إن الزيادة المسرفة فى جهةٍ من العقل تأتى من النقص المتحيّف لجهةٍ أخرى ؛ وإنه رُبّ عقلٍ كان تاماً عبقرياً فى أمور لأنه ضعيفٌ أبلهُ فى غيرها ؛ يُحسِنُ فى تلك ما لا يُحسِنه أحد ، ويُحكِمُ منها ما لا يُحكِمه أحد ؛ ثم يغلط فى الأخرى ما لا يغلط أحدٌ فيه ؟

قالوا : فجاشت العنزُ وفارت من الغضب فورةَ الجبّار ، وخيّل إليها من عمى الغيظ أنها ذهبت بين الأرض والسماء ، وأن زَعَمَتَها امتدّ منها خرطومٌ طويل ، وأن قرنيها انبعج منهما نابان عظيمان ؛ وقالت : ويحكم ! خذوا هذه (الهامة) فاشنُقوها ؛ فإنها كما قالت ؛ تقدّمت إلينا بالرأى والجبل . . . !

وكان فى العظاء ضِمانٌ ومَهازيلُ وجبناء وما كولون لكلّ آكل ؛ فتشبّح[(1)] لهم أن أنثى الفيل هـذه . . . ستخلفهم فيلة إنْ هم أطاعوها ؛ فإذا تردّوا عليها فإنها من صرامة البأس بحيث تجعل كلّ ظلفٍ من أظلافها جبلاً فوقهم كأنه ظُلّةٌ فتسوخ بهم الأرض . ثم إنهم انخزلوا وتراجعوا وأُخذتِ (الهامةُ) الصالحة فشُنِقت ، وخمد الرأىُ من بعدها وانقطع الخلافُ والدِّينُ والعقلُ الحرّ . . . . ؛ وأقبلت دولةُ العظاء على العنز تجرّرُ أذيالها . . . .

قالوا : واغترّت الماعزة وأحسّت لها وجوداً لم يكن ، وعرفت لنفسها وهى ماعزةٌ نَباهةَ شأن الفيل القويّ ، فلَجّت فى عمايتها وكفرت بجنسها ، وقالت : لم يخلقنى الله فيلةً وخلقتُ نفسى ؛ فأنا لا هو . . .

وثبتَ عندها أنها ليست بعنزٍ وإن أشبهها كلُّ عنزٍ فى الدنيا ؛ وذهبت تقلّد وتعيش على مذاهب الفيلة بين العظاء ؛ فإذا مشت ارتجّت وتخطّرت كأنها بناءٌ يتقلقل ، وإذا اضطجعت أنذرتِ الأرضَ أن تتمسكَ لا تدكّها بجنبها . . . !

ومرّ ذلك الفيلُ بهذا الخراب مرّةً أخرى ، فلاذت العظاء كلّهن بالفيلة . . . . وتأهّبت هذه للقتال وتحصّفت فى البارزة والناجزة . . . . والماززة فنصبت قرنيها ، وحرّكت زَعَمَتَها ، وطأطأت ، وشدّت أظلافها فى الأرض ، وثبّتت قوائمَها ، وصلّبت عظامها ، ونفّشت شعرها ، وتشوّكت كالقنفذ ، وأصرّت بكل ذلك إصرارها ؛ وكانت عنزاً نطيحةً منذ كانت تتبع أمها وتتلوها ، فكيف بها وقد تفيّلت . . ؟

ثم إنها ثبتت فى طريق الفيل ليرى بعينيه هـذا الهولَ الهائل . . . فأقبلَ ، فمدّ خرطومه ، فنالها به ، فلفّها فيه ، فقبضه ، فرفعه ، فطوّحها ، فكأنما ذهبت فى السماء . . . !

وتهاربت العظاء ولُذنَ بأجحارهن ، ثم غدَونَ على رزقهن فإذا جيفةُ العنز غيرَ بعيد ، فذَبَنَ عليها وارتَبْنَ فيها وعلمن أنها كانت ماعزة فيّلها جنونها ، وأدركن أن الكذب على الحقائق قد جعل الله له حقائقَ أخرى تقتله ، وأن من غَلَبَ

(١) أى خيل إليهم وتمثل

أمةَ الَمطَاء على أمرها فليست الأيام والليالى عَطَاء فيغلبها ؛ وأن تغيير المخلوقات إنما يكون بتحويل باطنها لا بتحويل ظاهرها ، وأن الاناء الأحمر يُريك الماء مُحمراً والماء فى نفسه لا حمرة فيه ، حتى إذا انكسر الاناءُ ظهر كما هو فى نفسه ؛ وكلُّ ما يخفى الحقّ هو كهذا الاناء : لونٌ على الحقّ لا فيه ؛ ثم أيقَنَ أن محاولة إخراج أمةٍ كاملة من نزَعات ماعزةٍ مأفونة ، هى كمحاولة استيلاد الفيل من الماعزة . . . !

* * *

قال كليلة : واعلم يا دمنة ، أنه لولا أن هذه العنز الحمقاءَ قد كفرتْ كُفْرَ الذبابة لما أخذَها اللهُ أخْذَ الذبابة

قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أن ذبابةً سوداء كانت من حمْقى الذّبان ، قُدِرَتِ الحماقةُ عليها أبدية ، فلو انقلبتْ نقطةَ حبر لما كُتبتْ بها إلا كلمةُ سُخف

ووقعت هذه الذبابةُ على وجه امرأة زَنجيّةٍ ضخمة ، فجعلتْ تقابل بين نفسها وبين المرأة ؛ وقالت : إن هذا لمن أدلّ الدليل على أن العالم فوضى لا نظام فيه ، وأنه مرسلٌ كيف يتفق على ما يتّفق عبثاً فى عبث ، ولا ريب أن الأنبياء قد كذَبوا الناس ؛ إذ كيف يستوى فى الحكمة خَلْق (أنا) وخلْقُ هذه الذبابة الضخمة التى أنا فوقها . . . ؟

ثم نظرتْ ليلةً فى السماء ، فأبصرت نجومها يتلألأنَ وبينها القمر ؛ فقالت : وهذا دليلٌ آخر على ما تحقق عندى من فوضى العالم وكذِبِ الأديان وعبثِ المصادفات ؛ فما الايمان بعينه ، إلا الالحاد بعينه ، ووَضعُ العقل فى شىء هو إيجادُ الألوهية فيه ، وإلا فكيف يستوى فى الحكمة وضعى (أنا) ورفعُ هذا الذّبان الأبيض ويَسْمُوه الكبير إلى السماء . . . ؟

ثم إنها وقعتْ فى دار فلاّح ، فجعلتْ تمور فيها ذهاباً وجيئة حتى رجعتْ بقرةُ الفلاّح من مرعاها ؛ فنُبهتِ الذبابةُ وجدَّتْ على غُرّتها من أوّل النهار إلى آخره ، كأنها تزاولُ عملاً ؛ فلما أمستْ قالت : وهذا دليلٌ أكبرُ الدليل على فوضى الأرزاق فى الدنيا ، فهاتان ذبابتان قد تَقَبّتا نُقبين فى وجه هذه البقرة وا كْتنّتا فيهما تأكلان من شحمها فتَعظُمان سِمَنا ؛ والناس من جهلهم بالعلم الذُّبابىّ يسمُّونهما عينين . . . . وأنا قضيتُ اليومَ كلَّه أخمِشُ وأعضُّ وألسع لأثقبَ لى ثقباً مثلهما فما انتزعتُ شعرة ؛ فهل يستوى فى الحكمة رزق (أنا) ورزقُ هاتين الذبابتين فى وجه البقرة . . . ؟

ثم إنها رأت خُنْفُساء تدبُّ دبيبها فى الأرواث والأقذار فنظرتْ إليها وقالت : هذه لا تَصلُح دليلاً على الكفر ؛ فأنى (أنا) خيرٌ منها ؛ (أنا) لى أجنحة وليس لها ، (وأنا) خفيفة وهى ثقيلة ؛ وما كأنها إلا ذبابةٌ قديمة من ذُباب القرون الأولى ذلك الذى كان بليداً لا يتحرّك ، فلم تجعل له الحركةُ جناحاً . ثم إنها أنصَتتْ فسمعتْ الخنفساءَ تقول لأخرى وهى تحاورها : إذا لم يجد المخلوق أنه كما يشتهى فليكفُر كما يشتهى ؛ ياوَيحَنا ! لِمَ لمْ نكن جاموساً كهذا الجاموس العظيم ، وما بيننا وبينه فرق إلا أنه وَجَدَ من يَنفُخُه ولم نجد . . . ؟

فقالت الذبابة : إن هذا دليلُ العقل فى هذه العاقلة ، ولعمرى إنها لا تمشى متثاقلةً من أنها بطيئةٌ مُرهقةٌ بعجزها ، ولكن من أنها وقورٌ مثقلةٌ بأفكارها ، وهى الدليل على أنى (أنا) السابقةُ إلى كشف الحقيقة . . . !

وجعلت الذبابةُ لا يُسمَعُ من دندنتها إلا : أنا ، أنا ، أنا ، أنا . . . . من كُفْرٍ إلى كفرِ غيره ، إلى كفر غيرها ؛ حتى كأن السماوات كلَّها أصبحتْ فى معركةٍ مع ذبابة ....

ثم جاءت الحقيقةُ إلى هذا الالحاد الأحمق تسعى سَعْيها ؛ فبينا الذبابةُ على وجه حائط ، وقد أكلت بعوضةً أو بعوضتين ، وأعجبتها نفسها ، فوقفت تحكُّ ذراعها بذراعها — دنت بَطّةٌ صغيرة قد انفلقت عنها البيضةُ أمس ، فمدّتْ منقارَها ، فالتقطتها . ولما انطبق المنقارُ عليها قالت : آمنتُ أنه لا إلَه إلا الذى خلق البطة . . . . !! ؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

إلى (.....) المجهولة :

اشكرك ياسيدتى ، وكل ما صنعته فهو خير ما كنت صانعة . وسأكتب إن شاء الله فى موضوعك بعد فترة من الزمن ، ولكن إياك والخاطر الذى خطر لك فانك تربحين به عثرة ، وتخسرين عثرات . . . . الرافعي